فى ذلك، فاعتبروا يا أولى الألباب .

وأخبر أن الحيّة التى كلمت آدم كانت من أعظم دواب البر، ولم يقل: من أعظم دواب السماء، فهم يقولون: إن الجنة لم تكن فى الأرض وإنما كانت فوق السماء السابعة، ثم قال وأخرجه من مشرق جنة عدن، وليس في جنة المأوى مشرق ولا مغرب لأنه لا شمس فيها، ثم قال: وأخرجه إلى الأرض التى أخرج منها، يعنى أخرجه من الفردوس الذى نصب له فى عدن فى شرقى أرض الهند، وهذه الأخبار التى حكى ابن قتيبة، إنما تنبئ عن أرض اليمن، وعن عدن وهى - من أرض اليمن -، وأخبر أن الله نصب الفردوس لآدم - عليه الصلاة والسلام - بعدن، ثم أكد ذلك بأن قال: الأربعة أنهار التى ذكرناها منقسمة عن النهر الذى كان يسمى فردوس آدم.

قال منذر: وقال ابن قتيبة عن ابن منبه عن أبى هريرة : قال: واشتهى آدم عند موته قطفا من الجنة التى كان فيها بزعمهم على ظهر السماء السابعة، وهو فى الأرض، فخرج أولاده، يطلبون ذلك له حتى بلغتهم الملائكة موته، فأولاد آدم كانوا مجانين عندكم إن كان ما نقله ابن قتيبة حقا، يطلبون لأبيهم ثمرة جنة الخلد فى الأرض.

قال: ونحن لم ننقل عشر ما قال هؤلاء، ولو كانت جنة الخلد، لخلد فيها، ونحن استدللنا من القرآن، وغيرنا قطع وادعى بما ليس له عليه برهان.

فهذا ذكر بعض أقوال من حكى الخلاف فى هذه المسألة، ونحن نسوق حجج الفريقين إن شاء الله - تعالى - ونبين ما لهم وما عليهم.

* * * * * * *

الباب الثالث
حجج من اختار أنها جنة الخلد

(فى سياق حجج من اختار أنها جنة الخلد التى يدخلها الناس يوم القيامة)

قالوا: قولنا هذا هو الذى فطر الله عليه الناس صغيرهم وكبيرهم لم يخطر بقلوبهم سواه، وأكثرهم لا يعلم فى ذلك نزاعا.

قالوا: وقد روى مسلم فى صحيحه[1] من حديث أبى مالك عن أبى حازم عن أبى هريرة وأبى مالك عن ربعى عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله - تعالى -**

---

(1) رواه مسلم فى الإيمان: حديث (329).

الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم – عليه السلام – فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟» وذكر الحديث.

قالوا: وهذا يدل على أن الجنة التى أخرج منها هى بعينها التى يطلب منه أن يستفتحها. وفى الصحيحين[1] حديث احتجاج آدم وموسى وقول موسى: أخرجتنا ونفسك من الجنة، ولو كانت فى الأرض فهم قد خرجوا من بساتين، فلم يخرجوا من الجنة. وكذلك قول آدم للمؤمنين يوم القيامة: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟، وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا.

قالوا: وقد قال الله تعالى فى سورة البقرة:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[2].

فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين: أحدهما: من لفظة اهبطوا، فإنه نزول من علو إلى أسفل، والثانى:{وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ} عقيب وقوله:{اهْبِطُواْ}. فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك فى الأرض، ثم أكد هذا بقوله فى سورة الأعراف:{قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[3] ولو كانت الجنة فى الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا: وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا فى جنة الخلد فقال:{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى}[4] وهذا لا يكون فى الدنيا أصلا، فإن الرجل ولو كان فى أطيب منازلها لابد أن يعرض له شىء من ذلك، وقابل سبحانه بين الجوع والعرى، والظمأ والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحر الظاهر والباطن، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعرى والضحى. وهذا شأن ساكن جنة الخلد.

---

(1) رواه البخارى فى القدر: ب(11)، ومسلم فى القدر: حديث (13).
(2) آية (35، 36) سورة البقرة.
(3) آية (25) سورة الأعراف.
(4) آية (118) سورة طه.

1 قالوا: وأيضا فلو كانت تلك الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى قوله:{هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى}؟[1] فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية، وأن ملكها يبلى.

قالوا: وأيضا هذه القصة فى سورة البقرة ظاهرة جدا فى أن الجنة التى أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[2] فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة، ولهذا أتى فيه بضمير الجمع؛ وقد قيل: إن الخطاب لهما وللحيّة وهذا ضعيف جداً، إذ لا ذكر للحيّة في شيء من قصة آدم، ولا في السياق ما يدل عليها، وقيل : الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع كقوله:{وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}[3] وهما داود وسليمان، وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول، لأنها بين قول لا دليل عليه، وبين ما يدل اللفظ على خلافه، فثبت أن إبليس داخل فى هذا الخطاب وأنه من المهبطين، فإذا تقرر هذا، فقد كرر سبحانه الإهباط ثانيا بقوله:{قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[4] والظاهر أن هذا الإهباط الثانى غير الأول، وهو إهباط من السماء على الأرض، والأول إهباط من الجنة، وحينئذ فتكون الجنة التى أهبط منها أولا فوق السماء جنة الخلد، وقد ظن الزمخشرى[5] أن قوله:{اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً} خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما .

---

(1) آية (120) سورة طه.
(2) آية (32 - 37) سورة البقرة.
(3) آية (78) سورة الأنبياء.
(4) آية (38) سورة البقرة.
(5) الزمخشرى هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة أبو القاسم الزمخشرى الخوارزمى. يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا. كان واسع العلم، كثير الفضل متفننا فى كل علم، ومعتزليا. مات سنة (538). له ترجمة فى: البداية والنهاية (219/12)، ووفيات الأعيان (254/4).

قال: والدليل عليه قولـه تعالى:{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[1] قال: ويدل على ذلك قولـه:{فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[2] وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم.

ومعنى قولـه:{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} ما عليه الناس من التعادى والتباغى وتضليل بعضهم بعضا، وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية، فإن العداوة التى ذكرها الله - تعالى - إنما هى بين آدم وإبليس وذريتهما، كما قال الله تعالى:{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}[3] وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها فى القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو،

وأما آدم وزوجه فإنه إنما أخبر فى كتابه أنه خلقها ليسكن إليها.

وجعل بينهما مودة ورحمة، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته، والعداوة بين الإنسان والشيطان. وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس وهم ثلاثة، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه، مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه، فلم يصنع الزمخشرى شيئا.

وأما قولـه تعالى فى سورة طه:{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} وهذا خطاب لآدم وحواء: وقد جعل بعضهم عدوا لبعض، فالضمير فى قولـه:{اهْبِطَا مِنْهَا}، إما أن يرجع إلى آدم وزوجه، أو إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع لـه، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر، وأما على الأول فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى وزوجه بالهبوط. والثانى: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس، ولهذا أتى بضمير الجمع فى الثانى دون الأول، ولابد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعا، كما قال تعالى:{إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ}[4]. وقال للذرية:{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}[5].

---

(1) آية (123) سورة طه.
(2) آية (38، 39) سورة البقرة.
(3) آية (6) سورة فاطر.
(4) آية (117) سورة طه.
(5) آية (6) سورة فاطر.

وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية ؟، وأما الإهباط فتارة يذكره بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله فى سورة الأعراف:{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا} ، وكذلك فى (سورة ص)[1] وهذا لإبليس وحده، وحيث ورد بصيغة الجمع فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم.

وحيث ورد بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس إذ هما أبوا الثقلين[2] وأصلا الذرية فذكر حالهما ومآل أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما، وقد حكيت القولين فى ذلك.

والذى يوضح أن الضمير فى قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا} لآدم وإبليس، أن الله - سبحانه - لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال:{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا}[3] وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا، فإن المقصود إخبار الله - تعالى - للثقلين، بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكر أبويهما أبلغ فى حصول المعنى، من ذكر أبوي الإنس فقط.

وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة، فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوى الثقلين أولى من تجريده إلى ذكر أبى الإنس وأمهم، فتأمله.

وبالجملة فقول:{اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} ظاهر فى الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين فى قوله:{اهْبِطَا} من غير موجب.

قالوا: وأيضا فالجنة جاءت معرفة بلام التعريف فىجميع المواضع كقوله:{اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} ونظائره ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التى وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة كالمدينة، والنجم، والبيت، والكتاب، ونظائرها، فحيث ورد لفظها معرفا انصرف إلى الجنة المعهودة فى قلوب المؤمنين.

---

(1) في الآية (77) {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} وفي [سورة الحجر : 34].
(2) الثقلين : الإنس والجن.
(3) آية (121) سورة طه.

وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة أو مقيدة بالإضافة، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة فى الأرض.

فالأول كقوله: {جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ}[1].

والثانى كقوله: {وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ}[2].

والثالث كقوله: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}[3] .

قالوا: ومما يدل على أن جنة آدم هى جنة المأوى، ما روى هوذة بن خليفة عن عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى[4] الأشعرى قال: "إن الله - تعالى - لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير".

قالوا: وقد ضمن الله - سبحانه وتعالى - له إن تاب إليه وأناب أن يعيده إليها، كما روى المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[5] قال: "يا رب ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى، قال: أى رب ألم تنفخ فىّ من روحك؟ قال: بلى، قال: أى رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أى رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال: فهو قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}" وله طرق عن ابن عباس، وفى بعضها: "كأن آدم قال لربه إذ عصاه: رب إن تبت وأصلحت، فقال له ربه : وإنى راجعك إلى الجنة"[6] فهذا بعض ما احتج به القائلون بأنها جنة الخلد، ونحن نسوق حجج الآخرين.

* * * * * * *

الباب الرابع
سياق حجج المخالفين لهذا الرأى

(فى سياق حجج الطائفة التى قالت: ليست جنة الخلد وإنما هى جنة الأرض).

---

(1) آية (32) سورة الكهف.

(2) آية (39) سورة الكهف.

(3) آية (127) سورة القلم.

(4) أبو موسى الأشعرى هو: عبد الله بن قيس بن سليم الأشعرى. كان له ثلاث هجر: إلى مكة، ثم إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. وكان رضى الله عنه قارئا صيتا. مات سنة (42). له ترجمة فى الرياض المستطابة ص (188 - 191).

(5) آية (37) سورة البقرة.

(6) ابن كثير (81/1).